الغزو الفكري

obeikan.com

obeikan.com

منذ أن بدأت الموجة الأخيرة لغزو العالم الإسلامي والمسماة بالاستعمار فإن العالم الإسلامي يتعرض لأشكال وأنماط عدة من الغزو.

ولعل الاستعمار قد أدرك وبوضوح أن فشل الحملة الصليبية كان يرجع في جزء منه إلى رسوخ مجموعة من القيم في العالم الإسلامي قد استطاعت أن تحفظ حيوية الأمة وتمدها بطاقة خلاقة. كانت كافية لإلحاق الهزيمة بالحملة الصليبية برغم شراستها اللامحدودة. وبرغم أن أوروبا قد حشدت لها كل إمكانياتها.

وهكذا ومنذ أن وطأت الحملة الفرنسية أرض مصر في عام ١٧٩٨ فإن عمليات الغزو المستمرة للعالم الإسلامي لم تقتصر على الغزو العسكري بل تعدته إلى غزو سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي خطير.

ولعل نابليون لم يكن يلهو حين استقدم معه مطبعة وعلماء.

وهكذا فإن الاستعمار قد أدرك أن عليه أن يهز أركان العالم الإسلامي الثقافية ليتسنى له من بعدها التهامه عسكريا واقتصاديا.

وهكذا فإن الغزو الفكري قد بدأ منذ الوهلة الأولى للاستعمار كأحد أهم الأسلحة الاستعمارية وهكذا فإن الاستعمار بدأ يعد مدرسة كاملة من مثقفينا للقيام بهذه المهمة ولقد استهدف الغزو الفكري ضمن ما استهدف ما يلي:

- إزاحة الإسلام، بما أنه القوة الرئيسية التي تحافظ على تماسك الأمة وتمنحها استمراريتها وحيويتها.

- إزاحة كل القيم الإيجابية من ضمير الأمة ومحاولة إحلال قيم سلبية مكانها. وهكذا وجدنا من يحاول طمس معالم الإسلام المجاهد بما أن الإسلام يمثل القيمة الكبرى في تراثنا الثقافي والسياسي والاجتماعي في محاولة إرساء إسلام مستأنس وتشجيع العزلة، والاتكال.. إلخ.

- محاولة استبدال الوحدة الإسلامية بأشكال أخرى ضيقة الأفق ومشبوهة مثل القومية العربية الجاهلية أو الإقليمية الضيقة.

- إرساء قوى سياسية تتبنى المنظور الغربي بشقيه الرأسمالي والاشتراكي بدلاً عن الإسلام السياسي وكبديل له خاضع للغرب بما أنه جزء منه.

- زرع مجموعة من الأمراض الاجتماعية مثل تحرير المرأة. إلى الانحلال وبناء أنماط مشوهة من السلوك الإسلامي.

- محاولة نزع الثقة دائمًا من الجماهير في قدرتها على النضال وأن هذا النضال نوع من العبث.

- لعل آخر رموز تلك المدرسة الاستعمارية هم لويس عوض - هيكل - مصطفى أمين.

- علينا هنا أن نحدد آخر مراحل الغزو الفكري في محاولة استعمارنا متخذين أمثلة من كتاب هيكل.

لقد جاء كتاب خريف الغضب على أثر محاولة ناجحة لجماهير الشعب في مصر لإزاحة حاكم مستبد مما أعطى تلك الجماهير ثقة أكبر في قدرتها على النضال في مواجهة الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي.

هكذا كان على الاستعمار أن يطوق تلك الثقة التي امتلكتها الجماهير سريعًا قبل أن تصبح تلك الجماهير قادرة على الإطاحة بالمرحلة الاستعمارية، ولذلك كان كتاب خريف الغضب محاولة استعمارية لسحب رصيد الثقة والوعي لدى الجماهير في نجاحها في إزاحة السادات.

برغم أن أساليب الغزو الفكري متنوعة تبدأ من محاولة تحليل خاطئ للظواهر التي نعيشها - أو محاولة تطويق وعي الجماهير أو إثارة قضايا جانبية - أو إشاعة

روح الهزيمة واليأس في صفوف الجماهير فإن هيكل قد استخدم أسلوبين رئيسيين في محاولاته:

(أ) التحليل الخاطئ للظواهر.

(ب)محاولة تطويق وعي الجماهير ونضالها.

وهما أسلوبان قد برع في اللعب بها محمد حسنين هيكل.

نذكر بها الصدد مقالات هيكل عن عدم جدوى المقاومة الفلسطينية في مواجهة إسرائيل عقب معركة الكرامة في الأردن والتي بدت المقاومة الفلسطينية على أثرها قادرة على تعبئة الجماهير حولها للدخول في حرب إسلامية شعبية ضد الكيان الصهيوني.

(راجع مقالات الجمعة - الأهرام ٦٨)

كما نذكر مقالاته عن حالة اللاسلم واللاحرب في عام ١٩٧٢ والآن علينا أن نضبط هيكل مرة أخرى متلبسًا.

◆◆◆

التحليل الخاطئ للظواهر

حينما نواجه ظاهرة معينة، فإن المواجهة الصحيحة لتلك الظاهرة تقتضي منا أولاً وبشكل أساسي أن نحدد هذه الظاهرة تحديدًا جيدًا. طبيعتها، شكلها، أسبابها، مظاهرها، نتائجها، علاقتها بالظواهر الأخرى إلخ.

وإن أي خطأ في تحديد ذلك. معناه ببساطة شديدة الفشل التام في مواجهتها. ومعناه أيضًا استمرارها حتى ولو كان في أشكال أخرى.

وهكذا فإن هيكل يتعمد تحليل ظاهرة السادات تحليلاً مغرقًا في التزييف.

يقول هيكل إن سياسات السادات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كان مبعثها أن السادات مريض نفسيا.

يقول هيكل إن دوافع تلك السياسات لدى السادات كانت عقدة النجومية..

- الطفولة المعقدة - الفقر - تكدس الأسرة في منزل مزدحم.
- سواد لون الأم لأنها كانت زنجية الأصل.
- ميل إلى الخيال نتيجة تراكم الشعور بالكبت.

والآن نبدأ نحن في تحليل نظام السادات ليتسنى لنا معرفة إلى أي متاهة يقودنا هيكل.

- في الحقيقة لا نستطيع معرفة طبيعة نظام السادات دون أن نعرف جذور النظام - أهدافه - توجهاته.

ونظام السادات في رأينا هو امتداد لنظام عبد الناصر الذي كان السادات جزءا منه، ورئيس مجلس أمة - عضو مجلس قيادة ثورة - نائب رئيس جمهورية.

والآن نعود إلى الوراء قليلاً..

منذ الوهلة الأولى. فإن الصراع في المنطقة يتحدد وفق قوتين:

- جماهير مسلمة في تناقض رئيسي مع الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي.

- مدرسة استعمارية (حكام، أحزاب، علمانية، استعمار، صهيونية).

وهناك مجموعة من التناقضات الثانوية داخل المدرسة الاستعمارية ذاتها ولكن تلك التناقضات في النهاية تتحدد وتستمد شكلها من قوانين التناقض الرئيسي.

- وصل نضال الجماهير المسلمة ضد الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي إلى أوجه في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات.

- كفاح مسلح ضد الإنجليز - معركة التل الكبير - استشهاد عمر المليسي - أحمد شاهين.. إلخ (الإخوان المسلمين).

- كفاح مسلح ضد الصهيونية (معارك ٤٨ الإخوان المسلمين).

- نضال ضد المؤسسة المستبدة (الملك وأحزاب الأقلية - إضرابات الطلاب - المظاهرات إلخ).

- انتفاضات مستمرة في الريف المصري ضد الإقطاع بقيادة أعضاء جماعة الإخوان المسلمين.

(كنوز نجم والشهيد عناني عواد - بهوت وميت فضالة).

- إضرابات عمالية واسعة ضد الرأسمالية المستغلة.

وفي النهاية فإن أوصال النظام وقتها كانت قد تفككت وبات النظام بكل المعايير غير قادر على الاستمرار - والجماهير المسلمة في الوقت نفسه باتت تمتلك الثقة والرصيد القتالي والوعي - والتنظيمات القادرة والمسلحة مثل الإخوان المسلمين.

وهكذا فالنتيجة المنطقية قيام نظام إسلامي مجاهدي يكتسح في طريقه الاستعمار. الصهيونية. والاستبداد السياسي.

وكان لا بد أن تتحرك المؤسسة الاستعمارية لتطويق ذلك المد - إما بالمواجهة وإما بالالتفاف.

وكانت تلك المؤسسة غير قادرة على المواجهة لا عبر عسكرها ولا عبر الملك ولا عبر الأحزاب العلمانية فكان الالتفاف. وكانت ٢٣ يوليو.

وهكذا جاء عبد الناصر ليؤدي مهمة محددة.

- إذا كانت الجماهير تطالب بجلاء الاستعمار فلا مانع وليعد من الشباك بعد أن خرج من الباب.

- إذا كانت الجماهير تريد التصدي الجماهيري المسلم للصهيونية عبر العقيدة الإسلامية وحرب التحرير الشعبية فلا مانع من خوض معارك إذاعية ومزيفة مع الصهيونية ولكن بعيدًا عن الإسلام وبعيدًا عن الجماهير.

- إذا كانت الجماهير تريد بناء نظام اقتصادي لا طبقي يستمد من الإسلام. إذًا يكون البديل المزيف هو الاشتراكية العربية.

ولكن كل هذا بشرط واحد. هو أن تعود الجماهير إلى منازلها. ليست مطالبة بالاشتراك في شيء وليتم تفريغ الشارع السياسي من الجماهير.

وفي الحقيقة فإن عبد الناصر وطبقًا لدوره المرسوم قد قام منذ الوهلة الأولى بـ:

- ضرب واسع للجماهير - إلغاء كافة أشكال الحريات السياسية.

نذكر هنا إعدام خميس وبقري بتهمة الشيوعية.

- مهادنة الإقطاع والتعامل معه برفق.

- ضرب كل القوى السياسية.

- ضرب بشع للحركة الإسلامية في ٥٤، ٥٧، ٥٩، ٦٥.
- ضرب أي شكل من أشكال المنظمات الجماهيرية.

وهكذا فإن عبد الناصر وبواسطة التلويح ببعض الإصلاحات قد قام بمهمته لصالح الاستعمار وهو ضرب الجماهير - إخراجها من ساحة الصراع.

- الارتباط بالاستعمار والاشتراكية العربية تتطور إلى انفتاح.
- الصلح مع اليهود (نكسة ٦٧ ثم مبادرة روجرز - ثم كامب ديفيد).

وفي الحقيقة فإن عبد الناصر لم يواجه إسرائيل إطلاقًا ولم يسمح للجيش بمواجهتها ولكن في كل مرة يتم سحب الجيش قبل المواجهة.

كما أن عبد الناصر ومن خلال خطبه وتصريحاته كان يوافق على مقررات الأمم المتحدة وقرار التقسيم.

- عودة الاستقلال الاقتصادي - أخذ الإقطاعيون في عهد عبد الناصر شكلاً آخر فكانوا المهيمنين على الاتحاد الاشتراكي ومواقع الإنتاج رغم كونها قطاعا عاما وتم نهب ثروات الشعب المصري بشكل بشع. كما ظهروا أخيرًا خلف مؤسسات الاستيراد والتصدير الانفتاحية.

وهكذا كان السادات امتدادًا عضويا لنظام عبد الناصر ولا مانع من وجود اختلافات شكلية بينهما.

انظر على سبيل المثال نفس التجربة على يد شخص واحد في الصومال وهو محمد سياد بري الذي بدأ يساريا وانتهى أمريكيا وهو في كل الحالات استعماري.

وهكذا فإن التطور الطبيعي لنظام عبد الناصر هو نظام السادات.

- فالانفتاح هو الامتداد للاشتراكية العربية.

- الأحزاب بقيود هو الامتداد للاتحاد الاشتراكي.
- كامب ديفيد هي الامتداد الطبيعي لمبادرة روجرز.

وهذا يعني ببساطة شديدة أننا أمام مؤسسة تتبنى سياسات اقتصادية وسياسية واجتماعية محددة ولسنا أمام شخص السادات.

ولكن هيكل يريد لنا الوقوع في المتاهة.

- مؤسسة وليس شخصا مع إدراكنا أن الشخص يؤثر ولكن دون الخروج عن الإطار المؤسس المرسوم.

*** ملاحظة**

ينبغي هنا التنبيه إلى أن الإسلام وقيم مجتمعنا يرفضان فكرة التمييز العنصري، وإن السود والبيض على حد سواء لا يجدون أي شكل من أشكال التمايز في العالم الإسلامي ولا يمس أي شخص أسود بأي شكل من أشكال التمييز في العالم الإسلامي.

كما أن الفقر أو سواد الأم أو سواد الوجه ليس مدعاة للعقد النفسية فيمكن أن يكون الفقر مدخلاً للعقد النفسية كما يمكن للغنى أن يكون مدخلاً لتلك العقد.

كما أن سواد اللون يمكن أن يؤدي إلى العقد النفسية بنفس القدر الذي يؤدي إليه بياض اللون.

واستمرارا في التحليل الخاطئ للظواهر فإن هيكل يقارن بين نمط السادات في التنمية ونمط عبد الناصر يدين الأول ويؤيد الثاني مدعيا أن القروض الأمريكية مخربة والديون السوفيتية بناءة.

ونود أن نشير إلى حقيقة أن نمط السادات هو نمط عبد الناصر مع اختلاف في

الدرجة لا يمس الجوهر، وأن النمطين مدانان وغير صالحين لمجتمعنا.

وأن كافة أشكال القروض سواء كانت أمريكية أو سوفيتية فإنها موجهة وتشل إرادتنا وتجعلنا خاضعين للابتزاز الأمريكي أو السوفيتي.

إن تكييف القضية بهذا الشكل هو استمرار لعملية التحليل الخاطئ للظواهر التي عرفنا أغراضها.

إنها محاولة لطمس معالم رسخت في وجدان شعبنا عبر نضاله الطويل. معالم تنمية إسلامية غير طبقية وعادلة.

إننا ندرك أن التنمية مسألة إرادة في المقام الأول وتعتمد على قدراتنا الذاتية ونشترط لها لكي تنجح أن تكون نابعة من قيمنا.

إننا ندرك أن العيب لم يكن في شكل عملية التنمية وظروفها ولكن العيب كان في شكل نظام الحكم في عهد عبد الناصر والسادات.

وإن محاولة بناء اقتصادنا بمعزل عن الإسلام هي محاولة فاشلة حتمًا ومشبوهة أيضًا.

وإن نجاح أي تنمية يعتمد على ارتباطها بالقيم لدى شعب معين وعلى إنهاء الحكم المطلق بمعنى أن يكون الشعب وفق إرادته هو الحارس على التنمية فضلاً عن أن يكون هو أساسها.

إن التنمية ترتبط ارتباطًا مباشرًا بتوجهات الحكم فالذي لا يواجه الاستعمار بل يهادنه سواء بروجرز أو بكامب ديفيد هو ذاته الذي يفتح المعتقلات، وهو الذي يظلم الفلاح والعامل وإن ذلك كله مرتبط أشد الارتباط وأوثقه ببعضه بعضًا.

◆◆◆

محاولة تطويق وعي الجماهير ونضالها

من أخطر ما تواجهه المدرسة الاستعمارية. هو أن الجماهير المسلمة في نضالها الدءوب من أجل الحرية والعدالة والمساواة تكتسب رصيدًا من الوعي وتدرك حقائق الصراع وقوانينه وتصبح أكثر ثقة في نفسها.

ولعل أحد هذه القوانين هو أنه بمقدار حركة الجماهير من أجل الحرية والعدالة والمساواة في مواجهة الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي. بمقدار قدرة تلك الجماهير في تقليل هامش المناورة والتنازل لدى أنظمة الحكم بل إن تلك الأنظمة قد تخضع لضغط الجماهير وتصبح أكثر صلابة في مواجهة أعداء الجماهير.

إن كل حركة صغيرة في نضال الجماهير تترك تراكمًا مهما في إيقاف نظام حكم ما عند حده وتضييق هامش تنازلاته وقمعه.

المدرسة الاستعمارية تحاول دائمًا ضرب هذه الحقيقة في وجدان الجماهير، وتحاول أن تفصل بين نضال تلك الجماهير وطبيعة تصرفات أنظمة الحكم. حتى تدفع الجماهير إلى الإحساس بعدم جدوى نضالها.

ولقد لعب هذا الدور دائمًا أطراف المدرسة الاستعمارية من يمين ويسار ووسط.. إلخ.

هكذا فإننا نجد هيكل يمارس تلك اللعبة وسوف نضرب مثلاً على ذلك مكتفين به.

يقول هيكل : إن هناك صلة مباشرة بين أحداث انتفاض ١٩٧٧ وبين زيارة

السادات للقدس ومبادرة السلام.

والآن نبدأ في مناقشة الموضوع:

الحدث الأول:

هو قيام الجماهير بالانتفاض في كل مصر يومي ١٧، ١٨ يناير على أثر قيام النظام برفع الأسعار ولقد نجحت تلك الجماهير في فرض إرادتها على النظام وتراجع النظام عن رفع الأسعار وتم إلغاء القرارات الخاصة بذلك.

الحدث الثاني:

هو قيام السادات بزيارة القدس والتي انتهت أحداثها بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد.

أي أن النظام قد وقع صلحًا معينًا مع عدو الأمة التاريخي ضربًا بتاريخ الأمة ودينها ووجدانها عرض الحائط.

وطبقًا لقوانين النضال البدهية. فإنه لا يمكن أن تكون هناك علاقة سببية بين نجاح الجماهير في فرض إرادتها في مظاهرات الطعام وبين خيانة النظام لتاريخ الأمة وتوقيع معاهدة كامب ديفيد.

فالعكس هو الصحيح تمامًا.

أي أن حركة الجماهير في ٧٧، وقبلها جهاد الشيخ حافظ سلامة بطل معركة السويس.

قد أسهما إلى كبير في تأخير الحقبة الإسرائيلية.

فلولا ذلك النضال لكان النظام قد وقع في الاستسلام بشكل أكثر درامية وخزيا مما تم.

بل إن ذلك النضال قد حجم ذلك الصلح ووضع أمامه كثيرًا من العراقيل، وجعله لا يدور كما يهوى النظام، وجدير بنا في هذا الشأن أن نشير إلى المعارضة الواسعة التي مارستها جماعة الإخوان المسلمين ونقابة المحامين والمشايخ الشجعان من أمثال الشيخ أحمد المحلاوي لمبادرة كامب ديفيد.

إذن فهيكل وبنجاح منقطع النظير يعكس الحقائق تمامًا.

كأن هيكل يريد أن يقول:

- إن الضغط على النظام والقتال ضده لا يؤدي إلى تقليل حجم تنازلاته وقمعه ولكن يؤدي إلى زيادتها. إذن فلا داعي للنضال ما دام يؤدي إلى عكس ما ترجوه الجماهير.

- وهكذا فإن هيكل يحاول سحب رصيد الوعي والثقة المتراكمة لدى الجماهير على أثر انتفاضة ٧٧.

أي أنه يريد تطويق نضال الجماهير وضرب وعيها ومحاولة التشكيك في قوانين النضال البديهية.

◆◆◆